المحاضرة الخامسة: الشـــــــــعر التعليمي

مفهوم الشعر التعليمي ومصطلحاته:

يطلق الدارسون على هذا النوع من الشعر عدة مصطلحات ، فمنهم من يطلق عليه شعر الأراجيز ، ومنهم من يطلق عليه اسم الشعر المنظوم ، ومنهم من يسميه شعر المتون، و هذه المصطلحات تطلق على الشعر الذي يصطنعه الشعراء عادة لنظم العلو م والمعارف تسهيلا للحفظ، و هو فن فرضه الرقي الثقافي والعقلي العربي منذ القرن الثاني الهجري ، حيث قام الشعراء المثقفون بنظم العلوم والمعارف والسير والقصص والأخبار بقصد تيسير حفظها، وتقريب معانيها إلى الطلاب والدارسين.

ويعرفه الدكتور عمر فروخ بقوله إنه:"الشعر الذي تنظم فيه فنون العلم المختلفة كالنحو والفقه والتاريخ تسهيلا لحفظها". بينما يعرفه عصمت عبد الله غوشة بقوله:" الشعر التعليمي فن قديم، الغرض من نظمه التثقيف والتعليم، تعليم الناس شؤون دينهم ودنياهم، والدعوة إلى الأخلاق الحسنة، وتزويدهم بمختلف الحقائق المتعلقة بالفرد و المجتمع والطبيعة وما وراءها".

وترى سلوى ناظم أن عرض المسائل العلمية يحتاج إلى النثر لا إلى الشعر وهذا هو الذي دعا إلى التخلي عن تسمية هذا النمط الأدبي شعرا، بل أطلق عليه اسم العلم المنظوم أو النظم العلمي و هذا النوع من النظم لا يعد شعرا بالمعنى الخاص ولكنه شعر من حيث الإطلاق، لأنه يفتقر إلى كثير من العناصر الشعرية التي تقوم على العاطفة والخيال وبعد التصوير، وإنما سمي شعرا، و سميت بعض المنظومات قصائد، من حيث مشابهتها للقصيدة شكلا فحسب.

واستعمل بعض النقاد مصطلح "منظومة " للدلالة على مجموعة الأبيات المنظومة في أبواب النحو والصرف، ولم يستعملوا مصطلح قصيدة لخروج المنظومات عن شروط الشعر، واستخدم آخرون لفظة "أرجوزة" أي قصيدة على بحر الرجز ، و يبنى فيها كل بيت على قافية واحدة صدرا و عجزا ثم بناء البيت التالي على قافية أخرى في صدره وعجزه وهكذا إلى آخر القصيدة، وسمي ناظموها بالرجاز، ورفض البعض استخدام كلمة أرجوزة لخروجها عن بحر الرجز أحيانا، ولا كلمة ألفية لخروجها عن شرط العدد.

ومن الدارسين من استخدم مصطلح "المتن" ويطلق على مبادئ فن من الفنون، في رسائل صغيرة غالبا، تخلو في الغالب من كل ما يؤدي إلى الاستطراد أو التفصيل كالشواهد والأمثلة إلا في حدود الضرورة، ولذلك عدت المتون الأقل ألفاظا الأحسن والأكثر قبولا عند الدارسين، ومن المعروف أن المتن هو الكتاب الذي تكتب فيه أصول المسائل، ويقابله شرح المتن.

نشأة الشعر التعليمي:

ارتبط الشعر التعليمي بظهور حركة الفتوحات الإسلامية، حيث اشتد إقبال الأهالي المفتوحة على تعلم العربية وشعور المعلمين والمتعلمين بالحاجة إلى وسيلة تسهل حفظ المعلومات ونقلها، فلجأوا إلى الشعر لأنه أفضل

وأسرع وسيلة إلى ذلك، وقد ظهرت بوادر هذا النمط من الأدب في أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة ممثلة في الأرجاز التي ألفت لإشباع حاجة اللغويين وكان على رأس الرجاز العجاج وابنه رؤبة [قال الخليل با أحمد الفراهيدي لما توفي رؤبة: دفنا الشعر واللغة والفصاحة]، اللذين أصبحت أراجيزهما كأنها متون لغوية للحفظ تخدم اللغويين بما تقدمه لهم من الشواهد والأمثال.

وقد تعددت موضوعات هذا النوع من الشعر في العصر العباسي لتشمل الموضوعات الكلامية والتاريخية والعلمية و الأدبية ومن أبرز المنظمين في هذا العصر أبان اللاحقي المولود حوالى عام 135هـ و الذي أشاع هذا الفن الشعري الجديد فنظم سيرتي "أردشير" و "أنوشروان"، وفي الفقه نظم أحكام باب الصوم والزكاة، كما نظم قصص "كليلة ودمنة" في أربعة عشر ألف بيت مستهلا بقوله:

هذا كتاب أدب و محنة وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه دلالات وفيه رشد وهو كتاب وصفته الهنـــــد
فوصفوا آداب كل عالم حكايـــة على ألسن البهائم

كما نظم بشر بن المعتمر (ت210هـ). وهو أحد المعتزلة قصيدتين في التاريخ أشاد فيهما بعظمة الله في خلقه، وله أرجوزة في تفضيل علي بن أبي طالب، و الرد على الخوارج والرافضة.

و للأصمعي (ت 213 هـ) قصيدة في تاريخ الأمم الغابرة. وألف أبو الحسن علي بن الجهم (ت 249 هـ) أرجوزة في تاريخ الخليفة منذ آدم عليه السلام حتى آخر الخلفاء العباسيين من 330 بيتا و فيها أسماء الأنبياء والخلفاء و مدة حكمهم و منها قوله في سيدنا إبراهيم عليه السلام:

ثم اصطفى ربك إبراهيما فلم يزل في خلقه رحيما

وقال في إسماعيل : وولدت هاجر قبل سارة وقبلها بلغت البـــشارة

ونظم ابن عبد ربه المتوفى سنة (328هـ) منظومة في تاريخ الخلفاء في كتابه العقد الفريد .كما نظم محمد بن إبراهيم وابن أبي الرجال في الفلك و الميقات و كلاهما في القرن الخامس الهجري، وفي مجال الفلسفة نجد "عينية" ابن سينا المتوفى عام 428هـ. وفي الطبيعة و الكيمياء نجد منظومة الطغرائي المتوفى عام 513هـ. وفي ميدان الزهد والحكمة نظم أبو العتاهية (211هـ) قصيدة التي تبلغ أربعة آلاف بيت ومنها قوله:

الفقر فيما جـــاوز الكفافا من اتقـــــى الله رجا وخافا
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا فكـل ما في الأرض لا يكفيكا
ما انتفع المرء بمثل عقلـــه وخير ذخر المرء حسن فعلـــه
إن الفساد ضـــده الصلاح ورب جد جره المـــــــزاح

المنظومات البلاغية:

إذا كانت علوم اللغة والنحو صيغت في منظومات تعليمية في القرن الرابع الهجري ، فإن صياغة الفنون البلاغية في إطار من الشعر التعليمي البلاغي قد تأخرت إلى القرن السابع الهجري، حين ظهرت البديعيات وهي قصائد المدح فابن جابر الأندلسي (ت779هـ) ألف قصيدة البردة التي عارض بها بردة البوصيري، فكانت القصيدة في

مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وكل بيت فيها يشير إلى فن من فنون البديع، بينما ذهب بعض الدارسين إلى أن صفي الدين الحلي (ت750 هـ) سبق ابن جابر إلى هذا الفن، ولكن فات هؤلاء قصيدة يحي ابن معطي(628 هـ) التي تعد أقدم منظومة بديعية فهو سابق على الحلي وابن جابر. ثم عرفت المنظومات في البديع انتشارا واسعا مع بداية القرن الثامن الهجري حتى بلغت أكثر من 90 بديعية من أهمها:. بديعية جلال الدين السيوطي (849-911 هـ) "نظم البديع في مدح خير شفيع"، وقبله بديعية أبو المحاسن تقي الدين (777-837 هـ) في ثلاثة و أربعين و مائة بيت تحدث فيها عن ستة وثلاثين ومائة فن بديعي، وبديعية ابن معصوم (1052 - 1119 هـ) في ستة وأربعين ومائة بيت.

وفضلا عن المنظومات البلاغية، فإن عصر الضعف وخاصة في القرنين السابع والثامن الهجريين، قد شهدا سباقا حميما في وضع المنظومات في شتى العلوم بالنظر إلى كثرة الاضطرابات السياسية والحروب، وخوفا من ضياع المصادر، ودرءا لانتشار العجمة واللحن، وحفاظا على التراث العربي العلمي والثقافي، وتسهيل حفظه ومذاكرته على طلاب العلم، لأن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره.

. ومن أشهر المنظومات العلمية نذكر:

في العقيدة:

- الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن القيم الجوزية (ت751هـ).
- العقد الفريد في علم التوحيد لأحمد بن مُحَمَّد الدمشقي المعروف بابن عرشباء (ت 754هـ).
- الإرشاد المفيد لخالص التوحيد للشيخ عبد الوهاب بن أحمد (ت 901هـ).

في الحديث:

- ألفية العراقي لزين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (ت 806هـ).
- نظم الدرر في علم الآثر للسيوطي (ت 911هـ).

في الفقه:

- النبذة الألفية في الأصول الفقهية. لمحمد بن البرماوي المصري (ت 831هـ).
- الزبد في الفقه الشافعي. أحمد بن حسين بن أرسلان الرملي (ت 844هـ).

في الفرائض:

- الكافية. حسين ب يوسف بن مُحَمَّد الدجيلي البغدادي (ت 732هـ).

في القراءات:

- عقد اللآلئ في القراءات السبع العوالي لأبي حيان الأندلسي (ت745هـ).
- طيبة النشر في القراءات العشر لأبن الجزري (ت 833هـ).

في علوم القرآن:

- التيسير في علوم التفسير لعبد العزيز بن أحمد الدميري (ت694هـ).

- تقريب المأمول في ترتيب النزول لبرهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت 732هـ).

في النحو والصرف:

- الدرة الألفية لابن معطي[1](ت628هـ).
- ألفية بان مالك (ت672هـ).

في البلاغة:

- خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان لابن حيان الأندلسي (ت 745هـ).
- منظومة البديع في علم البديع لابن معطي (ت 628هـ).
- منظومة في المعاني والبيان لمحب الدين بن الشحنة (ت 815هـ).

في المنطق والفلسفة:

- أرجوزة في المنطق لمحمد بن موسى بن مُحَمَّد الدوالي الصيرفي (ت 790هـ).
- السلم المنورق في علم المنطق لعبد الرحمن مُحَمَّد الأخضري (ت 983هـ).

في الطب:

- ألفية في الطب لداود بن عمر البصير الأنطاكي (ت 1008هـ).

في الفلك:

- منظومة في معالم الأوقات لعبد الواحد ب مُحَمَّد المشهدي (ت 883هـ).
- جامعة الجواهر في مطلع الكواكب الثابتة لمحمد بن أبي السعود ابن ظغيرة (ت 940هـ).

في الحساب:

- إباحة الباحة في علمي الحساب والمساحة لإيراهيم بن عمر البقاعي (ت 885هـ).
- كنز الطلاب في علم الحساب لنور الدين على بن مُحَمَّد الزمزمي المكي (ت 885هـ).

مميزات الشعر التعليمي:

- لا تخاطب المنظومات القلب، لأنها ليست لمسات عاطفية ذاتية تدغدغ المشاعر وتخاطب الوجدان، فهي ليست من الشعر الذاتي الوجداني ، ولكنها من الشعر الموضوعي الذي يخاطب العقل والفكر، ويعتمد الأسلوب المباشر الذي يكاد ينعدم فيه التصوير والخيال والبعد عن المجاز والإثارة والانفعال، وتتميز أساليبه كذلك بالهدوء بالعلمية لأنها تنقل أفكارا ومضامين علمية بحتة.

- استخدام وزن بحر الرجز في الغالب الأعم، وموسيقاه خفيفة مما يجعله سهل الحفظ ويكثر فيه التصريع، وتتنوع قوافيه وحروف رويه.

- شعر متخصص في علم النحو أو البلاغة أو العروض وشرح القواعد العلمية.
- الاستشهاد بالقرآن و الحديث و الأمثال و الحكم.
- يتميز باللغة السهلة و المعاني الدقيقة، وألفاظ واضحة محددة الدلالة.
- يستخدم المصطلحات العلمية والأسلوب العلمي ويقرر الحقائق.

- البدء و الختام باسم االله وحمده والصلاة على نبيه ﷺ.
- يكثر فيه التقسيم والتبويب والتنظيم .

[1]- هو يحي بن عبد المعطي بن عبد النور بن علي بن نصر بن يلول بن تاشفين بن علي بن يازيغ بن حنيفة أبو الحسين النحوي الأديب الشاعر الزواوي وأشتهر باسم ابن المعطي وهو واحد من أئمة عصره في النحو واللغة وينسب ابن معطي إلى زواوة وهي قبيلة كبيرة ذات بطون وأفخاذ بظاهر بجاية بجبال جرجرة من بلاد القبائل . ولد ابن معطي عام 564 هـ ، وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه ، ثم سمت به نفسه لطلب المزيد ، فأخذ العلم على كبار علماء عصره كالجزولي وابن عساكر، والتاج الكندي حتى أصبح إماما بارزا في علوم العربية وشاعرا مفلقا، وناظما مجيدا . وقدم دمشق فأقام بها زمانا طويلا ثم رحل إلى مصر فتوطنها، عاش ابن معطي أحلى لحظات عمره وذاق نشوة انتصارات صلاح الدين الأيوبي على الصليبين ولامس تشجيعات وإعجاب ولاة الأمر بالعلم والمتعلمين، نزل ابن معطي القاهرة سنة 624 هـ ، إذ كانت القاهرة عصرئذ مركزا علميا وثقافيا هاما ، فشارك بعلمه في إثراء الحياة الثقافية إلى أن وافاه أجله عام 628 هـ ودفن على مقربة من قبر الإمام الشافعي

تعد "الدرة الألفية في علم العربية"، أول منظومة تعليمية جزائرية، ضمنها ابن معطي الزواوي البجائي ، كل الأبواب النحوية، وبعض القواعد الصرفية ، بلغ عدد أبياتها 1021بيت ، نظمها سنة 595 هـ، وهو أول من أطلق لفظ الألفية حين قال في البيت رقم 1018: نحوية أشعارهم المروية هذا تمام الدرة الألفية.

ولأول مرة تنظم في الشعر العربي أرجوزة على بحرين هما الرجز والسريع، لأن المعتاد أن ينظم الشعراء قصائدهم على تفعيلات بحر واحد، وتحسب هذه لابن معطي الذي استطاع بقدراته الفنية التوفيق بين البحرين الرجز والسريع للتقارب الكبير بينهما في الإيقاع ومنها:

يقول راجي ربه الغفـــور يحي بن معطٍ بن عبد النّور
الحمد لله الذي هـــدانا بأحمـــــدٍ دينا له ارتضانا
فلم يزل يَنْمَى به الإسلام حتى استبانت للهدى أعلام
مؤيَدا منه بخـير الكتب وحْيًا إليـــــه بلسان عربي
لكونه أشرف ما به نُطق كما الرّسول خير مخلوق خُلق
صلى الله عليه ثمّ سَلّمَا وآله وصحبـــــــــه وكرّما
وذَا حَدَا إخوانَ صدق لي على أنِ اقتضوا مني لهم أن أجعلا
أرجـــوزة وجيزة في النحو عدَّتُـــــها ألفٌ خلت من حشو
لعلمهم بأن حفظ النظم وفقُ الذّكيّ والبعـــــــيد الفهم
لاسيما مشطورِ بحرِ الرجز إذا بني على ازدواج موجـــــز
أو ما يضاهيه من السّريع مزدوِج الشـــــــطور كالتصريع
فقلت غير آمن من حاسد أو جاهـــل أو عالم معانـــــد
بالله ربي في الأمور أعتصم القـول في حدّ الكلام والكلـــم
اللفظ إن يُفد هو الكلام نحو: مضى القـــــوم وهم كرام

تأليفه من كلم واحِـــدُها كلمـــــــــــة أقسامها أحـُدُّها

وهي ثلاث ليس فيها خلف الاسم ثم الفعـــــل ثم الحرف

وأما "منظومة البديع في علم البديع" لابن معطي، فتعد من أقدم المنظومات البلاغية في الأدب العربي، رغم أن الكثير من المؤرخين أغفلوها، معتبرينها من البديعيات المتخصصة في المديح النبوي، وأغلب من ترجم لحياة ابن معطي، كابن عماد الحنبلي، وياقوت الحموي، وابن خلكان والسيوطي، وابن كثير وغيرهم لم يشيروا إلى هذه المنظومة في علم البلاغة، بل ذكروا بدلها منظومة في العروض وقد ذكر بعض الدارسين أن أول من سبق إلى التأليف البديعي هو ابن جابر الأندلسي، إلا أن ابن جابر الأندلسي توفي سنة 779 هـ وأهم أثر له في هذا الفن قصيدته في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، حيث كان يضع في كل بيت فنا من فنون البديع، ورأى آخرون أن صفي الدين الحلي العراقي المتوفي سنة 750 هـ أسبق من ابن جابر وذكر آخرون ابن عثمان الآربلي المصري المتوفي سنة 670 هـ على أنه هو أول من أنشأ منظومة بديعية. وذهب إلى هذا الرأي من المحدثين شوقي ضيف؛ إلا أن مُحَمَّد مصطفى أبو شوارب يؤكد أسبقية ابن معطي على هؤلاء جميعا بقوله:"وقد فات على هؤلاء جميعا [...] أن يحددوا مكان منظومة يحي بن معطي من تاريخ المنظومات البديعية.

تختلف منظومة ابن معطي عن سائر البديعيات المؤلفة والتي جمعت بين غرض المديح وعلم البديع ، لأنها تخصصت في علم البلاغة ضمنها ابن معطي ثمانية وأربعون فنا بديعيا، عرفه بإيجاز ومثل له بأبيات من قصائد مختلفة لشعراء جاهليين وإسلاميين وأمويين وعباسيين، وتتألف هذه المنظومة من 297 بيتا شعريا منها 144 بيتا من إنشاء ابن معطي و151 بيتا من أبيات الشعراء الذين أتخذهم شواهد.

هذه المنظومة من الشعر التعليمي الهادف إلى تعريف المتلقين بالفنون البلاغية في اللغة العربية. تتميز بجانبها التعليمي، وتثبت مقدرة الناظم الفنية على الصياغة الشعرية للفنون النثرية، ومنهجيته التعليمية تعتمد على التعريف بالفن أو لا ثم يتبعه بجملة من الشواهد التي تشرح ذلك الفن وتبين أنواعه، إنه يجمع بين التعريف والتطبيق العملي من خلال سرد الشواهد وهذه وسيلة تعليمية هامة في الدرس النحوي والبلاغي. ويستهل ابن معط المنظومة قائلا:

يقول ابن معطٍ قلت لا متعاطيا مقالة من يرجو الرضى والتّعاطيا

بدأت بحمد الله نظـمي مسلِّما على أحمـد الهادي إلى الله داعيا

وبعـــــد فإني ذاكر لمن ارتضى بنُظُمي العروض المجتلي والقوافيا

أتيت بأبيات البديـــع شواهدا أضمّ إليها في نظمي الأسامـيا

فهاكَ في ذكر الطباق وحَـــدُّه مقابلة الضدين منـــــه أتيَ ليا

مقال جرير فاستمعه تحُـــدُّ به مقابلـــة يبدو بها النّظم حاليا

وباسط خير فيكم بيميـــــــنه وقابض شر عنكـــم بشماليا

وكقول دَعبلٍ استمعُ وأرضخُ له تجد البكاء يقابـــل الضحكا

لا تعجبي يا سلمُ من رجـــــل ضحك المشيب برأســه فبكا